قارئي بعد حين لا تضحك(1)

« كانت قديمة كأنها كتبت اليوم »

قارئي العزيز : ليفهم كل منّا صاحبه، مرّة وبلا رِدّة. إنني لم أبجّل في حياتي فعلاً. إنما أبجّله هو الروح الانساني. ما الفعل إلاّ الوشاح الذي يتشح به الروح. وما التاريخ إلاّ الأعمال المقلقة التي خلعها الروح الانساني. غير ان الحب قد يتصل، بعض الأحيان، بالقبّعات والأردية القديمة. فأراني أحب ساحة مارنجو (٢)

« نحن الآن في ساحة موقعة مارنجو »

لشد ما اضطرب قلبي في صدري عندما فاه السائق بهذه الكلمات. كنت قد غادرت « ميلان » في الليلة السابقة، برفقة لتوانيّ رفيع الأدب، كريم الخلق، تظاهر بأنه روسيّ. وفي صبيحة اليوم التالي شهدت الشمس تبزغ على ساحة الموقعة المشهورة.

هنا شرب الجنرال بونابرت جرعة عميقة من كأس [illegible] والشهرة فأسكرته،

ومضى في سكرته حتى أصبح قنصلاً، ثم عاهلاً، ثم فاتحاً عالميًّا، ولم يفق من سكرته هذه إلاّ من فوق صخور القديسة هيلانة. ولسنا بأحسن منه حالاً. فقد سكرنا نحن أيضاً وتناطرنا أحلامه، ثم نفيق. وفي تعاسة الصحوة نأخذ بمختلف ضروب النظر والتفكر اليقظ — وكأني أعجب هل أصبح المجد الحربي لهواً قديماً، وان الحروب قد لبست معنى أنبل من معناها القديم، فذهبت ومعها نابليون، الذي قد يكون — آخر الغزاة؟

يظهر كما لو أنّ لبانات روحيّة، أكثر منها ماديّة، قد علق بها الانسان في هذا العصر، وكما لو أن التاريخ الانساني قد تحوّل فلم يصبح حديث اللصوص، بل حديث الفكر، وكما لو أن القوميــة، ذلك الصنم الذي حذق الأمراء، ذوو الأطماع والشهوات، كيف يستخدمونه قناة لأغراضهم، القومية بما فيها من غرور وبغض، قد بليت وعلاها العفن

(١) From "Journey from Munich to Genoa, 18

(٢) مارنجو قرية على ثلاثة أميال جنوب شرق اليسندريا في ايطاليا، واشتهرت بموقعة ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ التي أتم بها نابليون هزيمة شمال ايطاليا، وكان نابليون يرتدي عباءته واتقته في الموقعة بجزيرة القديسة هيلانة. ولما مات كانت بجواره، تغطي بها.

نرى في كل يوم إن بعض حماقات القومية يختفي إثر بعض ، وان كل مقومات الحقبة قد مضت تنحل ، وتغيب في شمولية الحضارة الأوربيّة . أصبحنا ولا نرى في أوربا من أمم بل نرى أحزاباً ، نفكر فيها أنها بالرغم من اختلاف اللون وتباين اللغة ، قد تعرف ، بل وقد تفهم ، بعضها بعضاً جدّ المعرفة . وكما إننا نعلم أن هنالك سياسة ماديّة تنتحيها الدول، نعرف أن هنالك سياسة روحانية تؤيدها الأحزاب .

بالرغم من أن السياسة الدولية قد تقلب أتفه المشاحنات التي تقع بين أقل الامم شأناً ، حرباً أوربية شاملة يشترك فيها الجميع بحماسة تضطرم بشدة أو بضعف ، بحسب ما يختص وراءها من مصالح ، فانه من المستحيل في هذا العصر أن تقع في طرف من أطراف العالم مشاحنة، مهما تفهت وذلت ، لا تتجلى فيها تضمينات روحية واسعة النطاق، تعبّر عنها تلك السياسة الحزبية ، ومن غير ان تضطر أشد الأحزاب تنافراً وإبعاداً عن التآلف ، إلى الاشتراك فيها تأييداً أو ذماً .

تقتضي هذه السياسة الحزبية ، التي أدعوها سياسة الرّوح ، لأن إيمانها أقل ماديّة وعُدَدُها في التنابذ ليست مصبوبة من معدن مصهور ، وتقتضي أنها تنظم الامم صفين متقابلين ، كما تفعل الدول السياسية تماماً ؛ أدرك أن هنالك معسكرين متشاحنين ، آخذين في النماء والنشوء ، يتحاربان ، بالكلمات ، ويتقاذفان بالنظرات . إذ نداءات الحرب بينهما تختلف يوماً بعد يوم ، كما يختلف الذين يعلونها آونة بعد أخرى . وكذلك الفوضى ، فانها لا تنقصهما . فالغالب ان أعظم الخلافات قد تزيد ولا تنقص ، بفضل الزعماء الذين يحرّكون تلك السياسة الرّوحية [1] .

ولكن ... بالرغم من أن العقول قد تخطىء ، فان القلوب قد تشعر بما تحتاج اليه ؟ وإن الزمن لكفيل بأداء واجبه الأعظم . فما هو ذلك الواجب الاسمى الذي يضطلع به زماننا .

إنه التحرير !

لا تحرير أهل ايرلاندا أو اليونان أو يهود فرنكفورت أو سود جزائر الهند الغربية أو غير هؤلاء من الاجيال المستبد بهم ، بل تحرير العالم كله ، وبخاصة أوربا التي استطاعت أن تحظى بنفوذ الأغلبيات ؛ وهي اليوم تمزق أصفادها لتفلت من براثن الأرستوقراطية المحتضر .

إن بعض المرتدين عن دين الحرية من الفلاسفة ، قد يحاولون إن يحيكوا من المنطق أقسى القيود وأمتن الأصفاد ، ليبرهنوا على أن الملايين من الناس قد ولدوا ليكونوا دواب للعمل ، يستخدمها بضعة آلاف من الارستوقراطيين .

---

(١) يشير الى نشوء الأحزاب الاجتماعية التي ترمي الى القضاء على تفاضل الطبقات .

أنهم لم يقهرونا ، أو يظهروا ، كما قال فولنيو ، إن الأولين قد ولدوا وعلى ظهورهم السروج ، وان الآخرين قد ولدوا وفي أكعابهم المهاميز .

لكل عصر واجبه . ذلك الواجب الذي تتحرك الدنيا نحوه لانجازه . قد يمكن أن تكون الفوارق والامتيازات التي خلفها عصر الاقطاع في أوربا ضرورة فيما مضى من الزمن ، وقد تقول انها كانت حالة محتومة اقتضتها ضرورات التقدم نحو الحضارة . ولكنها الآن تعرقل أوربا وتركها تتعثر ، فتثير كل القلوب التي تقدس الحريّة .

إن الفرنسيين ، وهم أكثر الشعوب اجتماعية ، كانوا بالضرورة أشد تأثراً بهذه الفوارق ، لما لحظوا فيها من عداء للمبدأ الاجتماعي . فسعوا الى تحقيق المساواة ، وعمدوا الى الاطاحة في غير عنف ، ولكن بثبات وعزم ، برؤوس أولئك الذين أرادوا أن يؤيدوا الفوارق بين الطبقات بكل ثمن ، وكانت ثورتهم أول اشارة للانسانية كي تهب إلى حرب التحرير .

فلنمجّد أهل فرنسا !

لقد عنوا كل عناية بأعظم حاجتين من حاجات الجمعية البشرية : الغذاء الطيب ، والمساواة المدنية . لقد خطوا أعظم الخطوات في أمرين الطهي والحريّة .

وإذا قدّر لنا أن نجلس جميعاً مرحين متساوين في وليمة نضع فيها أساس التفاهم — وأي شيء أرضى للنفس من صحابة من الأنداد حول مائدة محمة ؟ إذن فلنشرب نخب فرنسا اولاً .

غير أني أتوقع انه سوف يمر بعض الزمن قبل أن تقام هذه الوليمة ، وقبل أن يتم تحرير الناس جميعاً . ولكنها لا بد آتية لا ريب فيها . فاذا أتت فسوف نجلس الى مائدة واحدة ونحن متساوون وفي سلام . سنتحد حينذاك . واذا اتحدنا شرعنا نحارب غير ذلك من شرور الدنيا ، وربما شرعنا في النهاية نحارب الموت نفسه ، ولو ان نظامه في المساواة لا يرمينا بعصبة أذكى من تلك التي يرمينا بها مذهب تفاضل الطبقات ، الذي يعتنقه الارستقراطيون .

قارئي بعد حين لا تضحك !

ان كل عصر يظن ان معركته التي يخوض غمارها هي أهم المعارك جميعاً . ان هذه الحقيقة التي تنطوي عليها عقيدة العصر . انها تعيش وتموت فيه . وكذلك نحن . سوف نعيش ونموت في هذا الدين ، دين الحرية . ولقد تكون الحرية أخلق بهذا الاسم من ذلك الخيال الفارغ الذي يضفى عليه هذا الاسم

ليظهر لنا ان معركتنا المقدسة التي نخوضها هي أهم المعارك التي شهدتها الأرض . ذلك على الرغم من ان القياس التاريخي يوحي الينا بأن أحفادنا سوف ينظرون اليها ، نفس تلك النظرة الهازئة التي نلقيها على معارك أسلافنا الاولين ، الذين قاتلوا أشباه الذين نقاتلهم اليوم من السعالي والعمالقة والأغوال .